# عوامل ازدهار الحياة الفكرية
## في القرنين 7 و 8 هـ بالمغرب الأوسط

د. محمد مكيوي
جامعة أبي بكر بلقايد. تلمسان

لقد كانت العلاقات الثقافية بين أجزاء المغرب الإسلامي في نمو مطرد خلال هذا العصر، فكانت (بجاية)، و(تلمسان)، و(مراكش) و(فاس)، حواضر للإشعاع الثقافي. وظل هذا الوضع قائما حتى في أحلك أوقات الصراع السياسي وأزمنة القطيعة التي كانت تظهر هنا وهناك لأسباب سياسية أو عقدية(1)، وذلك نتيجة لعوامل هي:

حرية تنقل العلماء والكتاب والأدباء والشعراء بين هذه الأقطار وعواصمها بالخصوص.

ازدياد التراسل وتبادل المعلومات والمخطوطات بين علماء المغرب الإسلامي.

وفرة عدد الطلاب المتلقين في هذه العاصمة أو تلك.

ازدهار صناعة الوراقين، ونسخ الكتب، وشكلت هذه الظاهرة، تميزا حتى أصبح لها مكانة قوية في بلاطات الملوك.

وفرة الإجازات العلمية بين العلماء والأدباء والفقهاء والمحدّثين حيث أصبحوا أعلاما زانوا بأعمالهم المحافل العلمية على مستوى عواصم بلدان المغرب الإسلامي.

وأدى هذا الاتصال والتبادل العلمي والثقافي بين أقطار المغرب الإسلامي إلى قيام بيئات ثقافية متجذرة الأصول ومتعددة الفروع فيما بعد وخاصة بعد هجرة بعض الأسر الأندلسية إلى القيروان وبجاية وتلمسان ومراكش وفاس.

ويعدّ تأسيس تاجرارت بجانب أجادير من طرف يوسف بن تاشفين خطوة حاسمة في تطور مدينة تلمسان، حيث أن المرابطين أولوها عناية خاصة، وجعلوها مقر ولاية المغرب الأوسط، فشيدوا بها قصرا جعلوه مقر الوالي، وبنوا المسجد الأعظم بإزائه، كما بنى الأمراء والوجهاء منازل فخمة حوله، وأصبحت المدينة الجديدة تستقطب العلماء والأدباء والتجار والعديد من الوافدين من مختلف أنحاء الدولة.

وفي عهد الموحدين تواصل التوسع العمراني بموازاة مع تزايد النشاط التجاري، من جهة وتعميق الثقافة العربية الإسلامية، من جهة أخرى.

واستفادت المدينة الجديدة من عناية الموحدين الذين أبقوها كمقر لولايتهم على المغرب الأوسط، وشيدوا أسوارها، محققين بذلك حصانتها. ثم إن امتداد الدولة الموحدية إلى سائر أنحاء المغرب الإسلامي أدى إلى توثيق العلاقات بين أقطارها، وتكثيف الاتصال بين سكانها. وأصبح كثير من العلماء والطلبة، يتنقلون بين هذه البلدان، للأخذ عن علمائها أو للتدريس والاستقرار بها. وهكذا فإن تلمسان لم تزل، منذ القرن الرابع الهجري، تستقطب العلماء، وتتجه بخطى حثيثة نحو النمو الثقافي والحضاري.

وقد عبّر البكري عن ذلك في وصف المدينة القديمة (أجادير) بقوله: "ولم تزل تلمسان دارا للعلماء والمحدّثين وحملة الرأي على مذهب مالك بن أنس رحمه الله"(2).

فهذا أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي المسيلي الأصل وأحد كبار المحدثين والفقهاء في عصره ينزل بتلمسان وينشر بها العلم إلى أن توفي بها سنة 402 هـ(3). وهذا أبو جعفر أحمد ابن غزلون من علماء الأندلس يستقر بها ويأخذ عن طلبة العلم إلى وفاته بها سنة 524 هـ(4). ومن رجال العلم والصلح الذين اشتهروا بها أبو محمد عبد السلام التونسي، الذي قدم من أغمات ونزل ودرس بها، فكان من تلامذته عبد المؤمن بن علي الكومي، مؤسس دولة الموحدين، وتوفي حوالي سنة 530 هـ(5). ومنهم عبد العزيز بن الدباغ من أهل مرسية رحل من الأندلس إلى فاس ثم إلى تلمسان،

فاستقر بها وكان فقيها ومحدثا، وتوفي سنة 602هـ(6). ومن أشهر العلماء، أبو عبد الله بن عبد الرحمن التجيني من أهل اشبيلية نزل تلمسان وأخذ عنه كثير من طلبة العلم وتوفي بها سنة 610 هـ(7).

ولا شك في توافد الكثير من رجال العلم على مدينة تلمسان أدى إلى تكوين أجيال من العلماء من بين أهلها أمثال ابن أبي قنون المتوفي سنة 557 هـ.(8) وأبي عبد الله بن عبد الحق، المتوفي سنة 625 هـ(9)، وغيرهم ممن نبغوا في مختلف العلوم كما أن كثيرا من علماء تلمسان رحلوا إلى أقطار أخرى واستقروا بها، أمثال الأديب أبي علي بن الأشيري، المتوفي بعد سنة 569 هـ(10)، وأبي موسى عيسى بن عمران الذي ولي القضاء بإشبيلية ومراكش، وتوفي بهذه المدينة سنة 578هـ(11)، وابنه أبي الحسن علي، الذي ولي قضاء فاس وتوفي سنة 594هـ(12). وكان هذا العدد الكبير من العلماء في هذا المركز الثقافي برقعته الواسعة، قد أثرى الحضارة العربية الإسلامية في مختلف مجالاتها هنا في المغرب الأوسط وفي كل أقطار المغرب الإسلامي، وشارك في نهضتها وتطورها ورقيها وتوسيع مجالاتها ومفاهيمها، علما، ودراية، واستيعابا وإبداعا، وكان يشكل نماذج مما قدمه المغرب الأوسط من مظاهر حضارية، لقد شملت جهودهم الحضارية ميادين كثيرة، في الآداب والفلسفة والتاريخ والرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية والجغرافية والفنون والصناعات.

غير أن العصر الموحدي الذي سبق قيام الدولة العبد الوادية، كان عصر حرب عقائدية بين الموحدين والفقهاء، فالموحدون كانوا ذوي فكرة إصلاحية في الدين وكان مذهبهم خليطا من مذهب الأشعرية في الكلام، ومن مذهب الشيعة الذين يؤمنون بفكرة الإمام المعصوم، ومن قولهم بالاجتهاد، وهم الذين أمروا بالاجتهاد والرجوع إلى الأصول من كتاب وسنة، ونبذ الفروع، بل إنهم أحرقوا كتب الفروع مثل: مدونة سحنون، ويقول المراكشي في هذا الصدد: "وفي أيامه (يعقوب المنصور ثالث خلفاء الموحدين)، انقطع علم الفروع/ وخاصة الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذاهب، بعد أن جرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن، ففعل ذلك، وأحرق منها جملة في سائر البلاد، كمدونة سحنون وكتاب ابن يونس، ونوادر بن أبي زيد ومختصره، وكتاب التهذيب للبراذعي، وواضحة ابن حبيب، وما جانس هذه الكتب، ونحا نحوها، لقد شاهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس، يؤتي منها بالأحمال، فتوضع ويشعل فيها النار.

وتقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بالرأي والخوض في شيء منه، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك، وإزالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن الحديث ..."(13).

وهكذا كانت الحرب العقائدية بين الموحدين والفقهاء مستمرة، إلى أن قضي على دولة الموحدين، من هذا نستطيع أن نقول إن هؤلاء الفقهاء قد تغلبوا سياسيا وعقائديا على الموحدين. فقد استطاعوا بمناهضتهم أن يؤلبوا الخاصة والعامة ضد الموحدين، وهذا ما جعل القضاء على دولتهم سهلا، فهذا المأمون الموحدي يعلن إعلانا رسميا بإبطال دعوى المهدي وعصمته حيث يقول: "من عبد الله إدريس أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، إلى الطلبة والأعيان والكافة، ومن معهم من المؤمنين، والمسلمين والذي نوصيكم به تقوى الله والاستعانة به، والتوكل عليه، ولتعلمها أننا نبذنا الباطل وأظهرنا الحق، وأن لا مهدي إلا عيسى بن مريم، الناطق بالصدق، وتلك البدعة قد أزلناها ... كما أزلنا لفظ العصمة عمن لا تثبت له عصمة، وسقطنا عنه وصفه ورسمه، وكان سيدنا المنصور رضي الله عنه(14) همّ أن يصدع بما به الآن صدعنا، وأن يرقع للأمة، الخرق الذي رقعنا، فلم يساعده لذلك أمله، وأجله إليه أجله، فقدم على ربه بصدق نية وخالص طوية ..."(15). فهذا الإعلان الرسمي من طرف الخليفة الموحدي أمام الملأ، يعود إلى تغلب الفقهاء على الموحدين وتشبثهم بمذهب أهل السنة(16).

لقد حاول الموحدون الضغط على فقهاء تلمسان كغيرهم من فقهاء المغرب، وإرغامهم على اعتناق أفكارهم الجديدة والتخلي عن المذهب المالكي، لكن هذه الوسائل لم تزد فقهاء تلمسان خاصة سلفية الإمام مالك إلا عنادا وتصلبا في الموقف(17)، بالرغم مما أصابهم من محن وأذى، وفي هذا

الشأن يقول عبد الله كنون: "والذي نريد أن نسجله هنا هو أن المذهب المالكي لم ينهزم مطلقا أمام الدعوة إلى الاجتهاد، التي كان الموحدون يتزعمونها ولا أمام المذهب الظاهري الذي عرف نشاطا كبيرا في هذا العصر"(18). فقد أظهر فقهاء المالكية مقاومة شديدة للموحدين. نتيجة لهذا الصراع الفكري، انتعشت الحركة الفكرية، ثم نضجت وانتشرت في الحواضر المغربية والأندلسية، وازدهرت العلوم الدينية ازدهارا كبيرا، فتقدمت دراسة الفقه تقدما ملحوظا، فنبغ في هذه العلوم عدد كبير من أهل تلمسان تركوا لنا مؤلفات ومصنفات ومختصرات عديدة"(19).

وهناك من شبه العصر الموحدي في المغرب الإسلامي بالعصر العباسي لأن فيه بدأت العلوم تتطور، وقد كان تأثير الموحدين في العقول أكثر من تأثيرهم في المجالات الأخرى ففي عهدهم تحررت العقول التي كانت تثور لأدنى بادرة من الخروج عن المسلمات، والقواعد المتعارفة. كما عرفت إنتاجا ضخما متنوعا ومتطورا، وذلك بفضل تشجيع الخلفاء الموحدين للأدباء والعلماء.

أما العصر الذي تلا عصر الموحدين، فيعد في الواقع امتدادا للعصر السابق على الأقل فيما يخص الميدان الفكري حيث سارت دول المغرب الإسلامي على نهج الموحدين في تشجيع العلم والعلماء، إذ أن البذرة الموحدية قد أينعت شجرتها، وأعطت ثمارها، فهؤلاء كما ذكرنا يقولون بالاجتهاد، وهذا حافز مهم في تحرير الأفكار من الجمود، وتنشيطها، ودفعها إلى الحركة والعمل على البحث والتفكير وعدم الاكتفاء بالحفظ(20) وهذا الجو كفيل أن ينشأ عنه أو يتخرج في مدارسه علماء نوابغ قادوا الحركة الأدبية، والعلمية. كما كان لحركة الهجرة الأندلسية دور كبير في تطور الحياة الفكرية في بلدان المغرب الإسلامي، وتعود هجرة العلماء الأندلسيين إلى حواضر المغرب الإسلامي لأسباب منها:

1. التدهور السياسي الذي أصاب الأندلس عقب سقوط الدولة الأموية 430 هـ وقيام ملوك الطوائف 430-488 هـ وهذا التدهور السياسي حفز بعض العلماء على الهجرة من الأندلس إلى المغربين: الأقصى والأوسط، وإلى إفريقية والمشرق رغبة منهم في الاستقرار السياسي الذي تكون فيه الدولة الإسلامية قوية مهيبة.

ولعل ابن رشيق المسيلي القيرواني أحسن التعبير عن عزوفه في البقاء في الأندلس ببيتيه المشهورين:

مما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتصم فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

2. ضم الأندلس إلى المرابطين 488-530 هـ على يد يوسف بن تاشفين وقد كان فتحها خيرا وبركة على النهضة الثقافية والحضارية في المغرب، حيث هاجر كثير من أعلام الأندلس إلى المغرب مقر السلطة الحاكمة، ونقلوا معهم حضارتهم وعلومهم وآدابهم وفنونهم، وفي ذلك يقول صاحب المعجب: "فانقطع إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه من عصر من الأعاصير" (21).

وكانت تلمسان وبجاية لا تقل عن مراكش عاصمة المرابطين استهواء للعلماء وقد استقر بها من أعلام الفقه والأدب والتصوف والفلسفة أفادوا أهلها واستفادوا منهم.

هذا بالإضافة إلى ما أبداه ملوك بني عبد الواد من رعاية وعناية للعلم والعلماء، والمنافسة التي كانت قائمة بين ملوك المغرب الإسلامي في مجال العلوم والآداب، حيث كان البلاط العبد الوادي بداية من يغمراسن بن زيان وفي عهد خلفائه يرى أن التجاء العلماء إلى دولته إنما هو تشريف لها، وإغناء لثروتها العلمية وسمعتها الأدبية في المغرب الإسلامي خاصة والعالم الإسلامي عامة، وكان يرى أن هذه الرعاية تضفي على شخصه سمعة ومهابة.لأن من بينهم من كان ينتمي إليه فكان منهم الفقيه والشاعر والأديب والفنان(22) فكان هؤلاء الأمراء والسلاطين وغيرهم يشجعون العلماء على الاجتهاد في الدرس، وتحرير الأفكار من الركود وتنشيط الحياة الفكرية كما كان في عهد أسلافهم الموحدين الذي تميز بالاجتهاد وحرية الفكر في المسائل المتعلقة بالمعتقدات والفقهيات، فتأثرت مدينة

تلمسان بهذه النهضة وبمختلف التيارات الفكرية السائدة آنذاك(23). فقد أتاحوا الفرصة للحوار والمناظرة والتعمق في البحث والإقبال على دراسة مختلف المؤلفات الفقهية وغيرها، حتى صارت مدينة تلمسان في عهد بني عبد الواد من المراكز التي تستقطب الطلاب وأهل العلم، حيث أقبلوا على الدراسة والاستفادة من علمائها المقيمين والزائرين مباشرة، حتى صار لهم "حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها، حسب تعبير ابن خلدون(24).

وكان السلطان يغمراسن من الأوائل الذين شجعوا الحركة الثقافية والتعليمية بتلمسان، ورغب رجال العلم في القدوم إلى عاصمته وأغدق عليهم الأموال والهدايا وأعلى منزلتهم، وشجعهم على التدريس واستقر في عهده بمدينة تلمسان الشيخ العالم أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي (ت 680هـ/1306م) كبير علماء زمانه(25)، وأخوه أبو الحسن (ت 706 هـ/1332م).

وقد كانت المنافسة بين سلاطين المغرب الإسلامي على أشدها في اختيار كبار الكتبة والأدباء والفقهاء، وإدراجهم في المجالس العلمية والدواوين مثلما فعل السلطان يغمراسن حيث تمكن من استقطاب أبي بكر محمد بن عبد الله بن خطاب المرسي الأندلسي إلى بلاطه(26) والذي يقال عنه أن المستنصر أبا عبد الله بن أبي زكريا الحفصي (647-675 هـ/1249-1277م) طلبه للكتابة، وبعث له أموالا كثيرة لهذا الغرض لكن ابن خطاب اعتذر ورد له أمواله، فظهر علو شأن هذا الكاتب وبعد همته عند الخليفة الحفصي وتحدث ابن الخطيب في هذا الصدد بقوله: "وزعموا أن المستنصر أبا عبد الله ابن الأمير أبي زكريا، استقدمه على عادته في استدعاء الكتاب المشاهير والعلماء، وبعث إليه ألف دينار من الذهب العين فاعتذر ورد عليه المال، وكانت أشق ما مرّ على المستنصر وظهر له علو شأنه وبعد همته"(27).

وكان السلطان يغمراسن يعقد المجالس العلمية في قصره ويهتم بالمذهب المالكي ويرعاه(28)، ونحا منحاه السلطان أبو سعيد عثمان في تشجيع ذوي العلم والفقه، فاحتفظ بمن كان في بلاط أبيه من العلماء والفقهاء والأدباء وأضاف لهم الشاعر الصوفي الكاتب المتميز أبا عبد الله بن خميس، وقلده خطة الكتابة(29). أما السلطان أبو حمو موسى الأول، فقد جعل مدينة تلمسان منارة للعلم يقصدها العلماء وأهل الفكر، نذكر منهم، الفقيهين الكبيرين ابني الإمام أبا زيد وأبا موسى الذين قربهما إليه وأكرم وفادتهما، وبنى لكل واحد منهما منزلا وأسس لهما مدرسة، وهي المدرسة الأولى التي تشيد بمدينة تلمسان في بداية عهده، وكان أبو حمو هذا يكثر من مجالستهما والاستماع إلى نصائحهما وعلمهما الغزير (30) واختصاصهما بالشورى(31).

وقرب السلطان أبوتاشفين الأول إليه الفقيه أبا موسى عمران المشذالي البجائي (ت745هـ/1345م)، أعرف أهل عصره بمذهب مالك وعينه مدرسا بالمدرسة الجديدة التي أسسها بتلمسان، وأراد بذلك لعاصمته أن تضاهي فاس وتونس وغرناطة في المجال الحضاري والعمران.(32)

وقد اشتهر في عهده أيضا أسرة بني الملاح(33)، وقاضي الجماعة أبو عبد الله محمد ابن منصور المعروف بابن هدية، الذي تولى قضاء الجماعة بتلمسان وكتابة السر والخطابة في المسجد الجامع، فكانت له مكانة متميزة عند أبي تاشفين الأول(34) الذي كان يحرص كل الحرص على إقامة المجالس العلمية والأدبية في قصره ويحضرها باستمرار، وتدار فيها المناقشات بين الفقهاء والعلماء والأدباء، لعب فيها الشيخ الفقيه العالم موسى بن عمران بن موسى المشذالي دورا بالغ الأهمية ، بين أقرانه الفقهاء في المسائل الفقهية التي كانت محور الحديث والنقاش،وحول التقليد والتقييد والاجتهاد وأصول المذهب المالكي(35).

ويبدو أن هذه الإنجازات لم تأت صدفة أو لمجرد رغبة الملوك في تخليد ذكرهم، بل اقتضاها النمو الثقافي الذي شمل أقطار المغرب الإسلامي، وقد تمت إنجازات مماثلة، خلال تلك الفترة في تونس وفاس، مما يجعلنا نعتقد أن بلاد المغرب كانت كلها، آنذاك، تعرف نهضة ثقافية قوية. لذا فليس من الغريب أن يشهد القرن الثامن الهجري نبوغ عدد كبير من رجال العلم والأدب وبروز إنتاج ثقافي

غزير، يحمل طابع الاجتهاد والإبداع ويخص سائر المجالات، حتى الرياضيات والفلك والطب، التي لم تحظ قبل ذلك بكثير من التفات العلماء في بلاد المغرب(36)، لأن عناصر الحركة الفكرية في المغرب الأوسط في هذا العصر الذي اضطربت فيه الأوضاع السياسية، كانت تتجه قبل كل شيء إلى العلوم الدينية والآداب، بينما لا تحظى العلوم العقلية المحضة منها إلا بالقليل النادر.

إن كثيرا من هؤلاء العلماء والفقهاء تفوقوا في العلوم الدينية كالحديث والأصول والتفسير والفقه، كانوا في الوقت نفسه يمتازون بتمكنهم من الأدب وعلوم اللغة، وبعضهم ينظم الشعر.

## الإحـــــــالات

1- المحاضرات المغربيات لمحمد الفاضل ابن عاشور ، ط، تونس ، 1974، ص 7.
2 -البكري: المسالك والممالك (نشره دي سلان)، ص 76-77.
3- القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج 3 ص 116-124 وج2 ص 623-624.
4- أنظر: يحي بن خلدون: المصدر السابق، ص 127- 128.
5 -عبد السلام التونسي أنظر ابن قنفذ: أنس الفقير ، ص 107-108، بغية الرواد ، ج1، ص 125-156.
6 -أنظر: الذخيرة السنية، ص 40.
7- أنظر: المقري: نفح الطيب، ج2، ص 360.
8- أنظر: عبد الرحمن بن خلدون: بغية الرواد 1/ 101-102-103. الحفناوي: تعريف الخلف، ج2، ص 258.
9 -بغية الرواد: المصدر نفسه، ص 112-113-114.
10- البيدق: أخبار المهدي بن تومرت (تحقيق عبد الحميد حاجيات)، ص 85.
11 -أنظر عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 245-246. بغية الرواد، ج1، 101-102-134.
12- أنظر : المعجب، ص 246-312. بغية الرواد ، ج1، ص 113-145.
13 - عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 278.
14- ولد المأمون الموحدي، أنظر عبد الله كنون: النبوغ، ج 2، ص 347.
15 -عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 278-279.
16- المصدر نفسه، ص278.
17 - المصدر نفسه، ص291.
18 - عبد الله بن كنون: النبوغ المغربي، ج1، ص 122-123.
19 - عبد الله بن كنون: المصدر نفسه، ص 189.
20- عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 278.
21- عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 864.
22 - يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1، (تحقيق: عبد الحميد حاجيات)، ص 216.
23- التنسي: نظم الدر والعقيان، ص 191-197.
24 - عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ص 106.
25- يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1، ص 114.
26 - ابن مريم: البستان، ص 227.
27 - ابن الخطيب: الإحاطة، ج2، ص 426-427.
28- ابن مرزوق: المجموع ، ورقة 35.
29- يحي بن خلدون: بغية الرواد، ج1، (تحقيق: عبد الحميد حاجيات)، ص 208.
30- يحي بن خلدون: بغية الرواد، ص 130، ابن مرزوق: المسند، ص 265-266.
31 - التنسي: نظم الدر والعقيان، ص 139.
32- يحي بن خلدون: المصدر السابق، ص 205-206.
33- عبد الرحمن بن خلدون: العبر، ج 7، ص 217-218، يحي بن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص 205-266.
34- النباهي أبو الحسن عبد الله المالقي: المرقية العليا فيمن يستحق القضاء والفتياالقاهرة ، ص 134).
35- المقري : نفح الطيب (ط بيروت 1968) ، ج5، ص 218-219.
36- عبد الرحمن بن خلدون: التعريف بابن خلدون، ص 21-23-32-39. يحيى بن خلدون: بغية الرواد، ج1، ص 17-18-24-25-120. المقري: نفح الطيب، ج7، ص 160-162. ابن مريم: البستان، ص 153-154.